بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد آله الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم إلى قيام يوم الدين

بقلم: السيد محمد بن السيد علي العلوي

كربلاء

بيانُ الثَقَلين

موضوعيةُ الدَمعةِ (الحارّة) في بِنَاء الوعي

لا يزال بعض المؤمنين يعاني من مشكلة ضعف القدرة على استيعاب حقيقة الأصل في إقامة المأتم الحسيني على وجه الخصوص، وفَهمِ ما اقتضَتْهُ التحولاتُ مِنْ ضَرُورَةِ التسليمِ لتعدُّدِ الألوانِ في خِطَابِ المأتم، وبسبب هذا الضعف نرى موجاتِ المُصَادَرَاتِ تجتاحُ الاستقرارَ النفسي للمؤمنين بين الفينة والأخرى..

هذا يريد منبرَ رِثَاءٍ ولا غير.. وآخر يريده للبحث العلمي والطرح الفكري ولا غير.. وثالث يريد حصرَه في السِيرَةِ فقط.. وهناك من يرجو ذلك اليوم الذي تتحول فيه المآتم إلى منتديات تقامُ فيها المؤتمرات والملتقيات الفكرية بدل الرثاء والطرح المنبري المعتاد..!

ومن بعض الزوايا نسمع صوتًا يعلو بأنَّ الحسين (عليه السلام) لم يُقتل من أجل أن نبكي عليه!!

وفي مُقَابِلِهِ يرتفع آخر ليقول: الحسينُ (عليه السلام) عَبْرَةٌ فقط ودمعةٌ، وأمَّا القول بكونِه عِبرَةً فهو قولٌ دخيلٌ مُخْتَلَقٌ..

كلُّ طائفةٍ تسعى لسحق من يقابلها، ولا يدري الناس أي الطوائف على حق، وأيها على باطل!

واقعٌ متعبٌ يُنغِّصُ على القلوب صفاءها تجاه عِظَمِ المصيبة..

أعتقد بوجود خللٍ في التمييز بين العناوين، وهذا ما أوقعنا في بعض المشاكل التي تَعَقَّدت بسبب عدم الالتفات إلى طبيعة الخلل، وإلَّا فهي ممَّا يَسهلُ حلُّهُ بمجرَّدِ الالتفات إلى ما ينبغي الالتفاتُ إليه..

أوَّلًا: سؤال: هل قُتِلَ الحسينُ (عليه السلام) من أجل أن نبكيَ عليه؟

هذا سؤالٌ فيه ما فيه من تسخيفٍ للبُكَاءِ من جهةٍ، ولقضيَّةِ الإمام الحسين (عليه السلام) من جهةٍ أُخرى.

أمَّا البُكاءُ:

هنا جهتان رئيسيتان، فالبكاءُ من جهةٍ انفِعَالٌ بِحَدَثٍ استدعاه، ومن جهةٍ أُخْرَى فَاعِلٌ لإعدادٍ نفسي تجاه الحدث وما يَتَّسِعُ منه، ولذلك قالوا في علم النفس: "أنَّ عدمَ التنفيسِ عن المشاعرِ لِفَترَةٍ طَويلَةٍ قد يكونُ خَطَرًا على صحة المرء؛ فقد أشارت بضعةُ أبحاثٍ إلى أنَّ مَنْعَ الدموع العاطفية من الانهمار قد يُسَبِّبُ ارتفاعًا في نسبة خطورة الإصابة

بأمراض القلب والضغط، كما أنَّ دراساتٍ أخرى أشارت إلى أنَّ من يعانون من أمراضٍ مثل التقرحات والتهابات القولون هم أقل تعبيرًا لمشاعرهم مقارنةً بالناس العاديين، وينصح علماء النفس الناس الذين يعانون من الحزن بالحديث والبكاء عوضًا عن محاولات التحكُّمِ في مشاعرهم".

فالبكاء كما أنَّه انفعالٌ في محلٍّ قابل، فهو من جهة أخرى يعود فاعِلًا في قوابل تحتاجه.

من الأخطاء التي قد يقع فيها البعض، حَصْرُ البُكَاءِ في بُعْدِهِ الأوَّل، أي بُعدِ الانفعال، وبسبب هذا الحصر تتولدُ عندهم بواعِثُ للوم طريقة خطباء المنبر والشيَّالة في استدرارهم لدمعة المستمع، والحال أنَّ الانفعالَ مطلوبٌ لِغَيرِهِ، وهو فعلُ التأثيرِ في النَفْسِ وتوعيتها للموقف تجاه الحدث وما يتَّسع منه وعنه.

وأمَّا قضية الإمام الحسين (عليه السلام):

لا يُنتظر من مؤمنٍ أنْ يَنْحَبِسَ في رُؤَاه الخَاصَّة، فيندفع لتسجيل موقفٍ سلبي من البكاء، وأوَّل ما يفعله جر الآخر لزاويةٍ جَدَليةٍ ضَيقةٍ يصنعها إنْزَالُ قضية كونيةٍ عُظْمَى كقضية الإمام الحسين (عليه السلام) إلى مقابلةٍ سيئةٍ جدًّا مع البكاء!

لا ينبغي لمؤمنٍ إيراد الإبل إيراد سعدٍ، وقد قيل: ما هكذا تورد يا سعد الإبل..

خرج الإمام الحسين (عليه السلام) لغاية مُرَكَّبة، شَكَّلَها الامتدادُ التاريخيُّ منذ ساعة الخلق الأولى، إلى حدِّ الفصل الأعظم، وهكذا تبقى في الأذهان على نسقٍ خطيرٍ من التبلور مع كلِّ لحظةٍ لِحَدَثٍ، وما أُطْرُوحَةُ (الإصْلاحِ) المُفَادة من قوله (عليه السلام): "إنَّما خَرَجْتُ لِطَلَبِ الإصلَاحِ في أُمَّةِ جَدِّي"[1] إلَّا العنوان الشامل لمسار السماء في (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)[2].

---

[1] - العوالم، الإمام الحسين (ع) - الشيخ عبد الله البحراني - ص ١٧٩

[2] - الآية ١٢٣ من سورة طه

يتَّسِمُ هذا المسارُ بصعوبةٍ بالِغَةٍ تُولِّدُها طبيعتُه القاضيةُ باعتزال ملَّذات الدنيا وتوطين النفس على التمسك بالأصالة والتمحور على مبادئها، وهو أمرٌ يُسمَّى اليوم (تَخَلُّفًا ورجعيَّةً)!

قال الرسول الأكرم (صلَّى الله عليه وآله): "يأتي على الناسِ زَمَانٌ الصَابِرُ مِنهُم على دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ"[٣]، وقال (صلَّى الله عليه وآله) متحدِّثًا عن أشراط الساعة: "فعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء، ممَّا يَرَى مِنَ المُنْكَرِ، فَلا يَسْتَطيع أنْ يُغَيِّرَه"[٤].

تتابعُ الأحداث منذُ خَلَقَ اللهُ تعالى الخلقَ حتَّى قَامَتْ كربلاء بكتابِ الحُسَينِ (عليه السلام)، وفيه بيانُ الثقلين المقدَّسين (الكتاب والعِترة)، والرسالة الواضحة من كلِّ ذلك: أنْ يا أيُّها الإنسان، افهم معادلات الحياة من خلال كربلاء.

ولكِن..

تَتَوَارَدُ غَزَوَاتُ الإضلالِ والتَجْهِيلِ على أكثرِ الثَوابِتِ إحكامًا في نفس الإنسان، وكثيرًا ما تَتَمَكَّن مِن حرفِها وإسقاطها في ضياعٍ يَتْلُوهُ ضَياع، حتَّى أنَّ آدمَ (عليه السلام)، وهو النبيُّ الذي شهدَ أحداثًا مفصليةً مهمَّة عالمَ الملكوت، مِنْ أمْرِ اللهِ تعالى الملائكة بالسجود، إلى استكبار إبليس، كما وتلقَّى هُو وزوجُه التحذيرَ المُبَاشِرَ مِنَ الباري تبارك ذِكْرُهُ بشأن عداوة الشيطان لهما، حتَّى أنَّه جلَّ في علاه عاتبهما بعد المعصية، فقال: (أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ)[٥]!!

إنَّنا نرى اليوم انحرافَاتٍ عقائديةٍ ووقوعِ البَعْضِ في شُبُهاتٍ وضَلالاتٍ تدعمُها أجواءٌ ثقافيةٌ عالميةٌ، ممَّا يُعقِّدُ معالجتَها أيُّما تعقيد..

أمرٌ واحِدٌ لا تتمكَّنُ هجماتُ التضليلِ والإفسادِ أنْ تَنَالَ شَيئًا مِنْه..

---

[٣] - الأمالي - الشيخ الطوسي - ص ٤٨٥

[٤] - مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ١١ - ص ٣٧٢

[٥] - الآية ٢٢ من سورة الأعراف

إنَّه (الدمعة) المرتبطة بالعاطفة.

نعم، قد تُستَدرُّ الدمعةُ استدرارًا، وقد تُهيَّجُ العاطِفَةُ بمختلف الطرق والأساليب، ولكن في نهاية الأمر لا شيء غير الدمعة، وهي وجود لا يمكن أن يُناقش أو يُعاتب أو يُطَوَّر، ولذلك، أُسجِّلُ في هذه المقالة تحفُّظي على تصنيف الدمعات بين دمعةٍ واعِيَةٍ وأخرى غير واعية؛ فالدمعة لا تُصَنَّف ولا تُصطَنع، والسبب في ذلك أنَّها فِعلٌ لا إرادي تفعله العاطفة فيُعَبِّرُ عنها. ولا تكون الدمعة إلى نفسها إلَّا دمعة، بلا زيادة ولا نقصان، وهذا على خلاف الفِكرة أو الرؤية أو ما شابه؛ إذ قد يُوحِّدُ اللهُ تعالى اثنان، ولكنَّ أحدهما يراه جسمًا، والآخر يعتقده مجرَّدًا، ثُمَّ أنَّ كلَّ واحِدٍ منهما قد تضاف إلى عقيدته أو تنتفي عنها عناوين، وفي كلِّ ذلك ربَّما بقيت عقيدة التوحيد، وربَّما انقلبت إلى إلحاد. فتأمَّل جيِّدًا.

لِنُدَقِّق قليلًا..

نحن لا نشكُّ طرفةَ عينٍ في حالِ عُمَرِ بنِ سَعد، وبالرُغمِ من فَسَادِهِ وضَلالِهِ وعظيمِ خُبْثِهِ، إلَّا أنَّه في لَحْظَةٍ، قالتْ له سيدتُنا العقيلة زينب (عليها السلام): "يا عُمَرَ بن سعد، أيُقْتَلُ أبو عبد الله وأنت تنظرُ إليه؟ ودمُوعُ عُمَرٍ تَسِيلُ على خديه ولحيته، وهو يصرِفُ وجهَهُ عَنْهَا"[٦].

وذكر الذهبي: "أخَذَ رَجُلٌ حُلِيَّ فاطمة بنت الحسين، وبَكَى. فقالت: لِمَ تَبْكِي؟! فقال: أأسلُبُ بِنْتَ رسولِ الله (صلَّى الله عليه وآله) ولا أبكي؟ قالت: فدعه. قال: أخافُ أنْ يأخذه غيري!"[٧].

إنَّه وبالرُغمِ من انحرافِ هَؤلاءِ وخُبثِ سَرَائِرِهم وقَسوةِ قُلُوبِهم، إلَّا أنَّهم في لحظةٍ هاج فيهم صِدقُ العاطفة، ولو كان أنْ سلَّموا أمرهم لدموعهم لما بعُدَ أن ينتفِضَ الوعيُ في نفوسهم، ولكن هيهات هيهات وقد استحكم الشقاءُ فيهم وطَغَتْ البهيميةُ على قُلُوبِهم فأعمَتْهَا.. وعلى كُلٍّ، فلم تكن دمعتُهم (حارَّة)!

---

[٦] - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٥ - ص ٥٥

[٧] - سِيَر أعلام النبلاء، الذهبي، ج٣ ص٣٠٣

نلاحظ بوضوح جنوح بعض المؤمنين لجعل الدمعة حالة ثانوية في قضية إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) وما جرت عليهم من مصائب تُعجِزُ الجبال الراسيات، بل وهناك من لا يرى لها من داع!

قد يذهب البعض إلى أنَّ مثل هذه الرؤى لا تقوى على الصمود أمام العنفوان المتجدِّد لأحزان أهل بيت النبوة في قلوب المؤمنين. إلَّا أنَّني أخشى من تناغمها مع الأجواء الثقافية الفاسدة التي تجتاح المجتمعات شمالًا وجنوبًا، وشرقًا وغربًا، بما من شأنه التأثير في البنائين الثقافي والفكري لجيل اليوم والأجيال القادمة.

من هنا، عقدتُ العزم على الكتابة في خصوص مسألة (الدمعة) التي يستخف البعضُ أمرها جهلًا بعظيم شأنها.

ومن الله تعالى أستمد العون بشفاعة سيدتي الزهراء (عليها السلام).

دعوةٌ لتأمُّل الأحاديثِ التالية[٨]..

- عن أبي جعفرٍ (عليه السلام)، قال: كان عليُّ بنُ الحُسَينِ (عليهما السلام) يقول: "أيُّمَا مُؤمنٍ دَمِعَتْ عَينَاهُ لِقَتْلِ الحُسينِ بنِ عليٍّ (عليهما السلام) دمعةً حتَّى تسيلَ على خَدِّهِ بَوَّأهُ اللهُ بِهَا في الجَنَّةِ غُرَفًا يسكنها أحْقَابًا، وأيُّمَا مُؤمنٍ دَمِعَتْ عَيْنَاهُ حتَّى تسيلَ على خَدِّهِ فِينا لِأذَيً مَسَّنَا من عَدوِّنَا في الدنيا، بَوَّأهُ اللهُ بِهَا في الجَنَّة مُبَوَّأ صِدقٍ، وأيُّمَا مُؤمنٍ مَسَّه أذىً فِينَا فَدَمعتْ عَيْنَاهُ حتَّى تسيلَ على خَدِّه من مَضَاضَةِ ما أُوذِيَ فينا صَرَفَ اللهُ عن وجْهِهِ الأذَى وآمَنَهُ يومَ القِيَامَةِ مِن سَخَطِهِ والنَار".
- عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: "إنَّ البُكَاءَ والجَزَعَ مَكْرُوهٌ للعبد في كُلِّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي (عليهما السلام)، فإنَّه فيه مأجور".
- قال أبو عبد الله (عليه السلام) في حديثٍ طويلٍ له: "ومَنْ ذُكِرَ الحُسَينُ (عليه السلام) عنده فخرج من عينَيهِ من الدموع مقدارُ جناحِ ذُبَابٍ، كان ثوابُه على الله عزَّ وجلَّ، ولم يَرْضَ له بدون الجَنَّةِ".
- قال الإمامُ عليُّ بنُ الحسين (عليهما السلام): "من قَطرتْ عيناهُ فِينَا قَطْرَةً، ودَمَعَتْ عيناهُ فِينَا دَمْعَةً، بَوَّأهُ اللهُ بِهَا في الجَنَّةِ غُرَفًا يَسْكُنُها أحْقَابًا".
- عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: "مَنْ ذُكِرنَا عِنْدَهُ ففاضتْ عَينَاهُ ولو مِثْلَ جَنَاحِ الذُبَابِ غَفَرَ لَهُ ذُنُوبَه ولو كانت مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ".
- عن أبي جعفرٍ (عليه السلام)، قال: "أيُّمَا مُؤمِنٍ دَمعتْ عَيْنَاهُ لِقَتْلِ الحُسَينِ (عليه السلام) دَمْعَةً حَتَّى تَسيلَ على خَدِّهِ بَوَّأهُ اللهُ بِها غُرَفًا في الجَنَّةِ يَسْكُنُها أحْقَابًا".
- عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: "مَن ذُكِرْنَا عِنْدَهُ فَفَاضَتْ عَينَاهُ حَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ على النَارِ".

---

[٨] -كامل الزيارات، ابن قولويه، من بابي: ثواب من بكى على الحسين بن علي (عليهما السلام)، وثواب من قال في الحسين (عليه السلام) شعرًا فبكى أو أبكى، ص ٢٠٤ - ٢٠٨

عن أبي هارون المكفوف، قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): "يا أبا هارون، أَنْشِدْنِي في الحُسَينِ (عليه السلام).

قال: فأنشدتُهُ، فبكى.

فقال: أنشدني كما تنشدون - يعني بالرقة -.

قال: فأنشدتُهُ: امرُر على جَدَثِ الحُسَينِ * فَقُلْ لأعْظُمِهِ الزَكِيَّة.

قال: فبكى.

ثُمَّ قال: زِدْنِي.

قال: فأنشدتُهُ القصيدةَ الأخرى. قال: فبكى، وسَمعتُ البُكَاءَ من خلفِ السِتر. قال: فلمَّا فرغتُ قال لي: يا أبا هارون، من أنشد في الحسين (عليه السلام) شِعْرًا فبكى وأبكى عشرًا كُتِبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، ومن أنشد في الحسين شِعْرًا فبكى وأبكى خمسةً كُتِبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، ومن أنشد في الحسين شِعْرًا فبكى وأبكى واحِدًا كُتِبَتْ لَهُمَا الجَنَّةُ، ومن ذُكِرَ الحسينُ (عليه السلام) عِنْدَهُ فَخَرَجَ مِن عَينِهِ مِنَ الدُمُوعِ مِقْدَارُ جَنَاحِ ذُبَابٍ كَان ثوابُه على الله ولم يرضَ لهُ بِدون الجَنَّةِ".

أردتُ من إيراد أكثر من حديث شريف عن أكثر من إمامٍ من أئمَّة الهُدى (عليهم السلام) لأُبَين خروج الأحاديث إلى حدِّ الاستفاضة، بما لا تطرأ معه الحاجة إلى السؤال عن الأسناد، وهذا فضلًا عن عظيم الفائدة من مجرَّد قراءة أحاديثهم (عليهم السلام)، فكيف بتأمُّلِها وتدارسها؟

تجدرُ الإشارة إلى أنَّ جفاف الدمعة كان ممَّا يستوجب اللجوء إلى الله تعالى بسؤال الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) طلبًا للعلاج! كما واستدعت اهميتُها ذكر المعصومين (عليهم السلام) لما من شأنه ترقيق القلب وتسهيل الدمعة، فعن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: بَينَمَا رسولُ اللهِ (صلَّى اللهُ عليه وآله) جَالِسٌ في مُصَلَّاه، إذ جاءَهُ رجلٌ يُقَالُ له عبد الله بن التيهان مِنَ الأنصار، فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي لأَجْلُس إليك كثيرًا وأَسْمَع مِنْكَ كثيرًا، فما

يرِقُّ قَلبِي، وما تُسرعُ دمعتي. فقال له النبيُّ (صلَّى اللهُ عليه وآله): يا بنَ التيهان، عليك بالعَدسِ، فَكُلْهُ؛ فإنَّه يُرِقُّ القلبَ، ويُسَرِّعُ الدمْعَةَ، وقد بَارَكَ عَليهِ سَبْعُونَ نَبيًّا"[٩].

هذا، وللدمعة دورها الخاص في استجابة الدعاء، وما كان الإمام الصادق (عليه السلام) "يبتهل حتَّى تجري الدمعة"[١٠].

قد لا نفهم الأبعاد الفاعلية للدمعة، ولكنَّ هذه الاستفاضة التي تُظهِرُ اهتمام أهل بيت العِصمَة (عليهم السلام) بها لا تترك لنا خيارًا غير القطع بأهميتها البالغة، كيف والجنَّةُ ثوابُها؟!

- **مُشْكِلَةُ العَصرِ مَعَ الدَمْعَةِ:**

من الواضح إشغالُ الدنيا عن الآخرة، وكلَّما ذهب الإنسان في معادلات الأولى ومصالحها، تحوَّل الدين في بنائه الثقافي والفكري إلى هويَّةٍ تتساوى مع أيِّ هوية عقائدية أو فكرية أخرى، ولذلك نرى اليوم دعوات لا يستهان بها للمساواة بين جميع الأديان، سماوية كانت أو غير سماوية؛ فالأمر ليس أكثر من (هوية) يصح تغييرها ولا يحق لأحد كائن من كان أن يتدخل في ذلك!

لذا، أصبحت أكثر الأديان جذبًا للناس، تلك التي لا تزاحم دنياهم، ولا يكون لها محلٌّ خارج صومعةٍ تُترَكُ داخلها الروح ليخرج البدن منها مُقبِلًا على الحياة ومصالحها، وقد نتمكن الآن من تفسير هذا الرواج الغريب لكتب التصوف لأمثال جمال الدين الرومي؛ فهي مُناسِبَةٌ تمامًا للحياة العصرية وماديتها ورأسماليتها. أمَّا البكاء معها فحدوده الصومعة ولا دخل له في تحديات الدنيا وصراع الحقِّ والباطِل.

إنَّها ليست أكثر من مُخَدِّرٍ عن كلِّ ما يحتمل فيه الخروج بصاحبه إلى غير السِكَّة المرسومة، وعمادها (وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ

---

[٩] - المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ٢ - ص ٥٠٤

[١٠] - الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - ص ٤٨٠

خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا)[11]؛ ألا ترى كيف يُنادى اليوم بعدم صلاحية الإسلام في إدارة الحياة على أصعدة السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية، وما شابه؟

إنَّه لأنَّهم يريدون إسلامًا بحسب مقاسات الحياة العصرية التي يعيشها الإنسان اليوم؛ فقد أصبحت هي المقياس، وما لا يتلاءم معها تخلُّفًا ورجعيةً وجمودًا!

عندما تُرجِعُ الدمعةُ الإنسانَ في أيَّام إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) إلى حقيقة المعادلة، وإلى أنَّ ضابطة التعيير إنَّما هي ما يُنجَزُ في الدنيا للسلامة في الآخرة، فإنَّهم يرون ذلك قتلًا للعقول وحرفًا عن مسارات التقدم!

نعم، قد يدافعون عن المآتم والمراثي و(الدمعة)؛ من باب كونها من التراثيات (الجميلة) التي ينبغي المحافظة عليها في حدود المكان والزمان.

صراعٌ قد لا يلتفتُ كثيرون إلى عِظَمِهِ ومَدَى جِدِّيَتِهِ، ولكن يكفي هنا التذكير بفاجعةٍ كبرى؛ حينما "اجتمع شيوخُ أهلِ المدينةِ وأقْبَلُوا إلى أمير المؤمنين علي (عليه السلام) فقالوا له:

يا أبا الحسن، إنَّ فاطِمَةَ (عليها السلام) تبكي الليل والنهار، فلا أحد مِنَّا يتهنأ بالنومِ في الليل على فُرُشِنَا، ولا بالنهار لنا قرار على أشغالنا وطلب معايشنا، وإنَّا نُخبرُكَ أنْ تَسْألها إمَّا أنْ تبكي ليلًا أو نهارًا.

فقال (عليه السلام): حُبًّا وكرامَةً.

فأقبل أميرُ المؤمنين (عليه السلام) حتَّى دَخَلَ على فاطِمَةَ (عليها السلام) وهي لا تَفيقُ مِنَ البُكاءِ، ولا ينفعُ فيها العزاءُ. فلمَّا رأتْهُ سَكَنَتْ هُنَيئةً له، فقال لها: يا بنت رسول الله (صلَّى اللهُ عليه وآله)، إنَّ شيوخَ المدينةِ يَسألوني أنْ أسألك، إمَّا أن تبكين أباك ليلًا وإمَّا نهارًا.

فقالت: يا أبا الحسن، ما أقل مكثي بينهم، وما أقرب مغيبي من بين أظهرهم، فواللهِ لا أسكتُ ليلًا ولا نهارًا، أو ألحق بأبي رسول الله (صلَّى الله عليه وآله).

---

[11] - الآية ١١٩ من سورة النساء

فقال لها عليٌّ (عليه السلام): افعلي يا بنت رسول الله ما بَدَا لكِ.

ثُمَّ إنَّه بَنَى لها بيتًا في البقيع نازِحًا عن المدينةِ يُسَمَّى بيتَ الأحْزَانِ، وكانت إذا أصبحتْ قَدَّمَتْ الحسنَ والحُسينَ (عليهما السلام) أمَامَها، وخَرَجَتْ إلى البقيعِ بَاكِيَةً، فلا تَزَالُ بين القُبُورِ باكيَةً، فإذا جاء الليلُ أقْبَلَ أميرُ المؤمنين (عليه السلام) إليها وساقها بين يديه إلى منزلها. ولم تزل على ذلك إلى أن مَضَى لها بعد موت أبيها سبعة وعشرون يوما، واعْتَلَّتْ العِلَّةَ التي تُوفِّيتْ فِيها"[١٢].

فهل تركت السيدةُ الزهراءُ (عليها السلام) معاصرة الدنيا ومواكبة الأحداث لتبكي بكاءً لا طائل من ورائه؟

وكما يقولون اليوم: وهل يصنعُ البكاءُ جهازَ حاسوبٍ أو سيارةً أو طائِرةً؟!

هنا مَعْقَدُ المشكلة بالضبط؛ فنظرُ السماءِ إلى جِهَةٍ، ونظرُ الإنسانِ في هذه الحياة الدنيا في جهة أخرى تمامًا، وبالرُغْمِ من أجنبيتها عن رؤية السماء، إلَّا أنَّه جعلها المعيارَ يُقيِّمُ به رُؤى الإسلام، وإن خالف، قال: ليس هذا الإسلام، بل هي أفهامكم، والإسلام لا يخالف العلم! فيفسر الثقلين المقدَّسين بحسب خلفياته الثقافية وما تقتضيه المعاصرة المنتِجة لما عليه واقع الحياة فعلًا.

ليس الأمر كذلك..

هناك أحداثٌ تاريخيةٌ يزنها التحليل العقلي على وفق منهج علمي صحيح، وبالرغم من ذلك تعصف نواقض مغالطية في أجواءٍ من التسويق الإعلامي على أعلى المستويات، وأقول هنا بضرس قاطع:

لو لا دموع السيدة الزهراء (عليها السلام)، ولو لا نحيبها وانينها، ولو لا إصرارها على الخروج في كلِّ يومٍ إلى البقيع باكيةً معولةً، لَمُحِقَتْ القضية؛ فأرضية الموازين العقلية والبحثية جافَّةٌ غايةُ الجفافِ، ما لم تُرْوى بالعطافة والحسِّ الإنساني القويم، ولذلك يُرجِعُ اللهُ تعالى حالاتِ الضلال إلى قسوة القلب، فيقول: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ

---

١٢ - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٤٣ - ص ١٧٧ - ١٧٨

فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[١٣].

يبين الله تعالى فضيلةَ البكاء ومكانته في عالم التكوين، فيقول: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)[١٤]، وقد يكون المعنى: وما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض، على نحو المجاز المرسل كما في قوله تعالى (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)[١٥]، والأمر سِيان بالنسبة لمحلِّ الشاهد، وهو البكاء، بغض النظر عن كونه مِنَ السماء والأرض، أو من أهلهما[١٦].

إنَّ الالتفات إلى مدلولات البكاء واستيعاب أبعاده، يولِّدُ في المجتمع حالةً من النكارة على العيون الجامدة، وهذا في حدِّ ذاته رادِعٌ مجتمعيٌ مُهِمٌّ لمصلحة رِقَّة القلب وما هو من مقدِّمات جريان الدمعة، وهذا أمر مطلوب لتحقيق أُسُسِ التراحم والحلم بين جماعات المؤمنين. هذا والكلام يطول في تحليل مدلولات الدمعة والاستطراد الموضوعي في تتبع فاعليتها المباشرة وبتوسط مفعولات وفواعل غيرها.

---

[١٣] - الآية ٧٤ من سورة البقرة

[١٤] - الآية ٢٩ من سورة الدخان

[١٥] - الآية ٨٢ من سورة يوسف

[١٦] - ذكرتُ في كتاب (الرَّواء في التفضيل بين مكَّة وكربلاء) بعض الشواهد على الحسّ عند مختلف الكائنات والمخلوقات، فليراجع.

مفاصل التحول في الخطاب المنبري

يرجع إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) إلى نوعين من الأدلة، موضوع أحدها البناء الفكري، والآخر البناء العاطفي، أمَّا الأوَّل فمن نماذجه ما عن عبد السلام بن صالح الهروي، قال: "سمعتُ أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يقول: رحم الله عبدًا أحيا أمرنا.

فقلتُ له: وكيف يُحيي أمركم؟

قال: يَتَعَلَّمُ عُلومَنَا ويُعَلِّمُهَا الناسَ؛ فإنَّ الناسَ لَو عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لاتَّبَعُونَا"[١٧].

وامَّا الثاني فمن نماذجه ما عن مالك الجُهني، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام)، قال: من زار الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء حتَّى يظلَّ عندَه باكيًا لقي الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة بثواب الفي الف حجَّة والفي الف عمرة والفي الف غزوة، وثواب كل حجَّة وعمرة وغزوة كثواب من حجَّ واعتمر وغزا مع رسول الله (صلَّى الله عليه وآله) ومع الأئمة الراشدين (عليهم السلام).

قال: قلتُ: جُعلتُ فداك، فما لمن كان في بُعد البلاد وأقاصيها، ولم يمكنه المصير إليه في ذلك اليوم.

قال: إذا كان ذلك اليوم، برز إلى الصحراء، أو صعد سطحًا مرتفعًا في داره، وأومأ إليه بالسلام، واجتهد على قاتله بالدعاء، وصلَّى بعده ركعتين، يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثُمَّ ليندب الحسين (عليه السلام) ويبكيه ويأمر من في داره بالبكاء عليه، ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضًا بمصاب الحسين (عليه السلام)، فانا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك علي الله عزَّ وجلَّ جميع هذا الثواب.

فقلتُ: جُعلتُ فداك، وأنت الضامن لهم إذا فعلوا ذلك والزعيم به؟

قال: انا الضامن لهم ذلك والزعيم لمن فعل ذلك.

---

[١٧] - عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ٢ - ص ٢٧٥

قال: قلتُ: فكيف يُعزّي بعضُهم بعضًا؟

قال: يقولون: عظَّم اللهُ أجورنا بمصابنا بالحسين (عليه السلام)، وجعلنا وإيَّاكم من الطالبين بثأره مع وليِّه الإمام المهدي من آل محمد (صلَّى الله عليه وآله)، فان استطعت أن لا تنتَّشر يومك في حاجةٍ فافعل، فإنَّه يوم نحسٍ لا تُقضى فيه حاجةٌ وإن قُضيت لم يُبَارك له فيها ولم ير رُشدًا، ولا تدَّخرنَّ لمنزلك شيئًا، فإنَّه من ادَّخر لمنزله شيئًا في ذلك اليوم لم يُبَارك له فيما يدَّخره ولا يُبَارك له في أهله، فمن فعل ذلك كُتب له ثواب الف الف حجَّة والف الف عمرة والف الف غزوة كلُّها مع رسول الله (صلَّى الله عليه وآله)، وكان له ثواب مصيبة كلِّ نبيٍّ ورسولٍ وصدِّيقٍ وشهيدٍ مات أو قتل منذ خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة"[١٩١٨].

عند جمعنا للطائفتين من الأدلة، نستقرب عدمَ مَمْنُوعية المزج بين الطرحين الفكري والعاطفي مادَّةً في إحياء أمرهم (عليهم السلام)، وقد نفهم أيضًا عدمَ صحَّة المواقف المتأزّمة ضدَّ هذا الطرح أو ذاك؛ فكلاهما مطلوبٌ في إطار الجو العام وبما يكفل التوازن الصحيح والطارد لأسقام الجمودين، جمود الفكر وجمود العين.

ثُمَّ أنَّه من المهم، بل من المهم جدًّا، الانتباه إلى اتِّخاذ مختلف طبقات المجتمع مسألة إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام) مادَّةً يتحرَّكون من خلالها في نشر قناعاتهم والدفاع عنها، وفي المواجهات بمختلف أشكالها.

ففي أجواء المواجهة بين الدولة البويهية من جهة والتيارات السنية من جهة أخرى، ينقل ابنُ كثير:

"في عاشر المحرَّم من هذه السنة (٣٥٢هـ) أمر مُعِزُّ الدولة بن بويه (قبَّحه الله -بحسب تعبير ابن كثير-) أن تُغلق الأسواق وأن يلبس النساءُ المسوح من الشعر وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ولم يمكن أهل السنة منع ذلك لكثرة الشيعة وظهورهم، وكون السلطان معهم. وفي عشر ذي الحجة منها أمر مُعِزُ الدولة بن بويه بإظهار الزينة في بغداد وأن تفتح

---

[١٨] -كامل الزيارات - جعفر بن محمد بن قولويه - ص ٣٢٥ – ٣٢٧

[١٩] -كتبتُ بحثًا صفيًّا مختصرًا بعنوان: (مختصر في الأطر العامَّة لأطوار المأتم الحسيني)، ضمَّنتُه كتاب (تحصيل الرشاد وتحصين العباد). فليراجع

الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تضرب الدبادب والبوقات، وأن تُشعل النيران في أبواب الأمراء وعندَّ الشرطة، فرحًا بعيد الغدير -غدير خم-، فكان وقتًا عجيبًا مشهودًا، وبدعة شنيعة ظاهرة منكرة"[٢٠].

ومع تغير الظروف السياسية، قام البويهيون أنفسهم بمنع مظاهر الإحياء في الشوارع!

وقد تكرَّر الأمر من حيث الطبيعة في كل من الدولتين الصفوية والقاجارية..

مرَّت، وتمرُّ مظاهرُ الإحياءِ بِمُنْعَطَفَاتِ صَنَعَهَا ويَصْنَعُهَا الواقِعَان السِيَاسِي والثقافي، ومِنْهَا ما عَاشَتْهُ الدولُ الإسلامية، وعلى وجه الخصوص العراق من أجواء المدِّ الشيوعي في خمسينيات وستينيات القرن المنصرم، ممَّا ولَّدَ توجهات في داخل التيار الحوزوي لتكوين جماعاتٍ وأحزابٍ للوقوف في وجهه، ومن هناك تشكَّلَ حزبُ الدعوة الإسلامية في النجف، ومُنَظمةُ العمل الإسلامي في كربلاء، ولأنَّ المواجهة مع الشيوعيين مواجهة ثقافةٍ وفِكر، نحا مؤسِّسُو الدعوة والعمل، وغيرهم ممن عاش الأجواء وتحمَّل المسؤولية، إلى تحريك المنبر والقصيدة الرثائية لمدِّ الجماهير برؤى الإسلام، ومن ذلك قصيدة سورة التوحيد تحرير العقول، التي قرأها المرحوم حمزة الصغير، ويقول فيها:

سورة التوحيد تحرير العقول ... ثورة إنسانية فجَّرها الرسول

هي دستور حياتي ... هذه معتقداتي

وبها العدل استقام ... هذا دين

دينَا دين التمدن والتقدم والسعادة ... دينَا أعظم مُنظم للبشر وضع اقتصاده

دينّا يقسم الثروة بلا نقيصة ولا زيادة

لا يجامل ولا بيه فرق ... أحكامه عل الكل تنطبق

ويه التطور يتفق وعلى القرآن استناده

---

[٢٠] - البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١١ - ص ٢٧٦

دينّا يتطبق في كل العصور ... والمرونة الهائلة بكل الأمور

اقتصادي الصفاتِ ... هذه معتقداتي

وبها العدل استقام ... هذا ديني

وهكذا برز الطرح الفكري إلى جانب الطرح العاطفي، ولكلاهما عمقٌ واحِدٌ، وإنَّما يبرز أحدهما على الآخر بحسب الظروف ومقتضياتها.

يبدو لي، من خلال بعض التتبع، رجوع المنبر إلى حالة الاقتصار على الرثاء والسيرة إلى ما قبل منعطف الثورة الإسلامية في إيران؛ فمن هناك تلاحقت مراحلُ التبلور في الخطاب المنبري بشكلٍ مُلفِتٍ، حتَّى وصلَ اليوم إلى مطالبات البعض بتحويله إلى منبرٍ بحثي صريح، وهنا أقول:

أوَّلًا: ليس من الصحيح تحميل المنبر المأتمي أكثر ممَّا يحتمل؛ بطلب أن يتبنى طرح البحوث العلمية وما شابه؛ وهذا لسببين رئيسيين:

١- للبحث الصفّي، وهو أبسط البحوث وأخصرها، أصولٌ وقواعد لا يُقالُ لما خلا منها بحثًا، وفي الواقع لا يتوافق البحثُ العلمي -غالبًا- لا مع التلقي الجماهيري، لقوة حضور العقل الجمعي بما يتشتَّت في أجوائه العقل الفردي الشخصي، ولا مع الوقت؛ فالمقدمة البحثية قد تستغرق ساعات موزَّعة على أيَّام، ناهيك عن مسائل البحث وما في حكمها.

قد يُقال: لا يُقصد بالبحث في المقام البحث بالمعنى الاصطلاحي الدقيق، فما نطلبه ليس أكثر من أن يكون المنبرُ منبرًا يطرح فِكرًا.

فأقول: هذا جيد، ومطلوب فعلًا، ولكن بشرط أن لا يُحمَّل جميع خطباء المنبر، فإنَّه من غير الصحيح وقوع الشيء على غير شاكلته، وينبغي الانتباه جيِّدًا إلى ضرورة التنوع في كثيرٍ من المجالات، ومنها مجال إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام)، وهذا ما سوف أتطرق إليه قريبًا إن شاء الله تعالى.

أُؤَكِّدُ على ضرورة عدم تحمُّل الإنسان ما لا يناسبه، وقد حضرتُ مجلسًا لأحد المحترمين من خطباء منبر (البحث)، ولكنَّني لم أجد بحثًا، وغاية ما كان فهرسة تفصيلية مع بعض التعليقات السريعة لمجموعةِ مَسَائِل جعلها الخطيب مسألة واحدة!

كان الطرح، بالرغم من صحَّته في الهيئة، إلَّا أنَّ مادته مشوشة جدًّا، والمشكلة أنَّ تشويشها غير ظاهر لجماهير المؤمنين، ممَّا يُعقِّد المشكلة ويطيل ذيولها!

٢- من الصعب جدًّا، إن لم يكن من المتعذِّر، طرح البحوث العلمية في أجواء جماهيرية، إلَّا أن يكون المقامُ مقامَ بناءٍ على المدى المتوسط على أقلِّ التقديرات، مع إحراز استمرار التواصل بين الخطيب والجماهير طوال مرحلة البناء، والتي لا ينبغي أن تقِلَّ عن خمس سنوات بأي حال من الأحوال، مع وضوحِ الأمرِ للخطيب وإدارةِ المأتم، بما يهيئ لاستمرار التواصل بين الأطراف طوال السنة، أي في أزمنة المجالس وخارجها.

ينبغي أن أُشيرَ إلى إمكان المنبر العلمي المعرفي الفكري في توازن تام مع العاطفة، لكنَّ هذا غير مقدور للجميع، ولذلك، فعلى المؤمنين إظهار الحِكمة في الحديث حول منبر الإحياء.

ثانيًا: بعد المحافظة على أصول إحياء أمر أهل البيت (عليهم السلام)، فإنَّ التنوع في مظاهره أمرٌ طَبِيعيٌّ جدًّا، وهذا لا يقتصِرُ على المنبر فقط، بل يتعداه إلى مختلف مظاهر الإحياء التي تتشكل بحسب قابليات المؤمنين والمساحات التي يجدون أنفسهم فيها.

مِنَ الخُطباءِ من يرى نفسه في النعي على الطريقة القديمة، ومن المؤمنين من يبحث عنها، فلِمَ يُطالَبُ بغير ذلك؟

ومنهم من يُبدِع في سرد السيرة، فليكن ذلك إلى جانب منبر الموعظة والإرشاد، ومنبر المطارحات، ومنبر الفِكر، ومنبر المسائل الاجتماعية والتربوية، وغير ذلك؛ إذ أنَّها جميعها مطلوبة بشرط الانطلاق فيها من أصول الثقلين المقدَّسين.

وهكذا تتنوع مظاهر الإحياء المنبري مع شرط المحافظة على أصولها الثابتة. بل حتَّى من يريدُ عقد الندوات والملتقيات الثقافية طوال عشرة محرَّم الحرام، فلا ينبغي أن يُعارض ويُتَّهم، مع ضرورة عدم تحكيمه هو لرؤيته على باقي الرؤى، بل ولا يصحُّ منه تخطئة الآخرين وتغليطهم؛ فالكلُّ على صوابٍ تحت عناوين الأدلة العامَّة والخاصَّة، ولن يتمكَّن طرفٌ من القضاء على طرف آخر ما دام الجميعُ يحترم مختلف الرؤى ويشمئز قلبُه من المصادرات.

ثالثًا: تتَّسِمُ أيَّامُ عاشوراء بازدحام البرامج على طول اليوم، فمنبر القراءة على ثلاث فترات، صباحًا وعصرًا وليلًا، والمواكب تملأ الطرقات في مختلف المناطق، صغيرة كانت كبعض القُرى، أو كبيرة كالمدن، ناهيك عن أنشطة المضائِف والمراسم ومسارح التشبيهات، والمطابخ، وغير ذلك، وفي مثل هذه الأجواء لا تكون الأذهانُ مُسْتَعِدَّةً بالشكل المطلوب للإعمالات الفكرية، وهذا أمرٌ مُهِمٌّ ينبغي الانتباه له جيِّدًا.

نعم، هناك شرائح في المجتمع تنتظر الرفد الفكري في أيَّام عاشوراء، وهو أمر جيِّد، إلَّا أنَّ هذه الأيَّام ذات سِمَة تصحيحية للنفس، وهو ما نفهمه من تكثيف وصاياهم (عليهم السلام) بالدمعة والبكاء، ما قد يُرجِّحُ الخطاب المنسجم مع الطبيعة النفسية للمؤمنين في مثل هذه الأيَّام.

رابعًا: من الواضح أنَّ ضابطةَ ارتقاءِ مِنْبَرِ الإحياءِ القُدْرَةُ على قِرَاءَةِ النعي، فمتى ما تمكَّنَ مُؤمِنٌ من حِفْظِ قصائد الرثاء للوفيات، أو المدح للمواليد، مع القدرة على قراءتها مرقَّقة بألحانٍ شجية جميلة، فإنَّه حينها مُؤهلٌ لارتقاء المنبر، ولا ضابطة واضحة وراء ذلك، بل لا حاجة لضابطة ما دام الكلام في هذا المستوى من الإحياء، وهو مستوى صحيح ومطلوب وعليه أحاديثُ شريفةٌ كما في ما دار بين الإمام الصادق (عليه السلام) وأبي هارون.

نعم، لا شكَّ في أنَّ موضوعية ورقي واتقان كاتب القصيدة والناعي لما يقومان به رهينُ مستوياتهما الثقافية، وهذا بلا ريب من كمالات المنبر والإحياء، وهو ما نرجوه للجميع بلا تردُّد.

عندما انتقل مِنبَرُ الإحياء من مستوى الإنشاد الشعري فقط، إلى مستوى الخِطابة، ومنها إلى المحاضرة، فإنَّ المِنبرَ كظرفِ مكانٍ لم يتغير ولم تتغير صفته الشرعية من حيث كونه موقوفًا لمأتم الإحياء، أو مملوكًا لمؤمنين يريدون

الإحياء، فلننتبه جيّدًا إلى أنَّه ليس من مقولات المُؤسَّسة بالمعنى التنظيمي الإداري، ولن يكون كذلك على الإطلاق؛ لأسبابٍ كثيرةٍ، من أهمها، كما أرى، المحافظة على طَبِيعيّ المنبر بعيدًا عن أي سُلطةٍ قد تُصَادِرُ ما لا يتوافق معها من ألوانه التي تستند إلى أدلة شرعية عامَّة وخاصَّة، ومن معلولات ذلك احترام المباني والتبانيات الثقافية والتوجهات الفكرية داخل نفس الخط الإسلامي للمؤمنين.

إنَّنا نرى نجاحَ تجرِبةِ مأسَسَة بعض المآتم، ولكنَّ هذا لا يعني تعميمها، بل نحن كمجتمع يقوم في بعض جهاته على اختلاف الثقافات البيئية، كثقافة البناء العائلي، وأخرى القروي، وثالثة الأكاديمي، نبقى في حاجة للمحافظة على مجموعة من التشكلات الإدارية بما يوافق أو يتوافق مع نفس البيئة الثقافية، ولا معنى ولا حاجة على الإطلاق لتعميم تَشكُّلٍ على الآخر.

هناك، فيما يبدو، بعض المآتم في البحرين لا تستعمل مكبرات الصوت، مستندين في ذلك إلى حرمتها بناءً على رأي أحد فقهاء البحرين.

أقول: هذه حالة حضارية جدًّا؛ أن تجِدَ من المؤمنين من يتَّمسك بفتوى شرعية ليست على نسق الحياة العصرية، بل هي ضدها. هو لونٌ يستحق الاحترام والتقدير والمحافظة عليه دون طنطنات يبرأ منها النظر العلمي براءة الذئب من دم يوسُف (عليه السلام).

عودٌ على بِدْء..

وردت أربعُ صِيَغٍ لبكو، هي: البكى، البكاء، الإبكاء، والتباكي، ننظر في مدلولات كلِّ صيغة منها.

البكى، وهو الدموع دون صوت، ومع الصوت **بكاء**.

في الأحاديث الشريفة غَلَبَ قَولُه (عليه السلام): "من بكى"، فيكون الصِدقُ بمجرَّد خروج الدمع من العين، ولذلك قال في غير مكان "فخرج من عينَيهِ من الدموع مقدارُ جناحِ ذُبَابٍ".

الإبكاء، وهو أن يُصنع في الآخر ما يجعله يبكي.

التباكي، إمَّا أن يكون التظاهر بالبكاء، أو طلبه.

بعد الوقوف على فضيلة الدمعة على مصائب أهل البيت (عليهم السلام) عمومًا، ومصائب الإمام الحسين (عليه السلام) على وجه الخصوص، ننظر في البُعد المعرفي الذي يُثيرُه السؤال عن إصرار أهل البيت (عليهم السلام) على الدمعة وإن كانت على نحو الطلب، أو حتَّى التظاهر! فإنَّنا نعي جيِّدًا أفضلية الحالة الطبيعية على الحالة المصطنعة، بل قد نستنكر التصنع ونعيبه في كثيرٍ من الأحيان.

أقول:

عندما يحثُّ الإمامُ المعصومُ (عليه السلام) بهذا الإصرار على الدمعة، فمن باب كونه (عليه السلام) في مقام البيان دائمًا، وأنَّه لا يقول إلَّا عن حِكْمَةٍ، ولا يقول غير المُحَكم وإن بدا للبعض متشابهًا، فنحن نقطع بأمرين:

الأوَّل: في داخل كلِّ إنسانٍ دمعة الحقِّ المُوجِبة للجنة.

يحث الإمام المعصوم (عليه السلام) على الدمعة، ثُمَّ يذهب إلى تحريكها في صدور الآخرين بما يخرجها إلى الحس، ومن بعد ذلك يتعامل مع من لا يستطيعها، فيحثه على طلبها أو التظاهر بها، ولو أنَّها غير موجودة عن الجميع لبيَّن مَنْ تَكُونُ مَعْدُومَةً مِنْهُم، أو فيهم.

نعم، دار الحديث في غير مورد عن جمود الدمعة وعن قسوة القلب، ولكن في كلِّ مرَّة يعطي الإمام (عليه السلام) الطريقة المثلى لمعالجة هذه الحالة، ما يدلُّ على وجودها فعلًا، إلَّا أنَّها جهتها المقتضية لخروجها، ولذلك فإنَّ المقام يفتقر إلى الشرط وارتفاع المانع، وهي وظيفة الفاعل للإبكاء من جهة، ومن يراد إبكاؤه من جهة أخرى، ليتحقَّق المقتضي والشرط وارتفاع المانع، فتخرج الدمعة.

من المهم الانتباه جيِّدًا إلى أنَّ هذه الدمعة المطلوبة ليست من سائر ما تهمله العين على ما تكابده النفس من متاعب ومصائب وما شابه؛ فهذه الأخيرة معلولة لمحض العاطفة الإنسانية، أمَّا في قضية مصائب أهل البيت (عليهم السلام)، وعلى وجه الخصوص مصيبة الإمام الحسين (عليه السلام)، فينبغي أن تخرج عن أمرين:

أحدهما الحرارة التي بينها الرسول الأكرم (صلَّى الله عليه وآله) في قوله: "إنَّ لِقَتلِ الحُسَينِ حرارةً في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدًا"[٢١]. وفي نفس هذا الحديث قال (صلَّى الله عليه وآله): "بأبي قتيل كل عبرة. قيل: وما قتيلُ كُلِّ عبرةٍ يا بن رسول الله؟ قال: لا يذكره مُؤمِنٌ إلَّا بكَى".

وأمَّا الثاني فكون هذه الدمعة محلًّا لرضىً مخصوصٍ من ربِّ العالمين.

وبذلك، فإنَّ الدمعة على مصائبهم (عليهم السلام) دمعةُ دِينٍ تُظهِرُهَا العاطِفة، وهذا فَصلها عن غيرها من الدموع، وإن تشابهت من حيثُ المظهر المادِّي.

الثاني: أنَّ لهذه الدمعة موضوعية في حركة الإنسان النفسية والذهنية الأعم من الثقافية والفكرية.

من أنا ؟

أولى الإسلام العظيم مسألة التذكرة أهمية بالغة، فبالرغم من وجود مِلاكات خاصَّة لمثل التختم باليمين، واللحية، والتزام المرأة إذن زوجها في الخروج من المنزل، إلَّا أنَّ بُعْدًا تذكيريًا مُهِمًّا يشغل جوانِبَ من دواعيها؛ فالرجل

---

[٢١] - مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ١٠ - ص ٣١٨

المتختِّم لمحبوبية التختُّم في الإسلام، قد يستذكر ذلك عند همِّه بمعصيةٍ أو ذنبٍ أو ما شابه، فيقول: لبستُه لأنَّه من مظاهر المؤمنين، ولا يليق بالمؤمن ارتكاب ما لا يرضاه اللهُ تَعالى.

عندما يقيمُ المُؤمِنُ نفسَه على مثل هذه العلائق لغاية الاستذكار والرجوع إلى الجادَّة المرضية، فإنَّه يُفيد غاية الإفادة من سائر الأفعال العبادية.

هذا في الأمور الخارجة عن ذاته، فما بالك بما يخرج منها؟

للدمعة على مصائب أهل البيت (عليهم السلام) مدلولات مهمَّة، بل بعضها مفصلي حسمي حازم.

فلندقق جيّدًا..

سأل رجلٌ عبادةَ بن صامت عن عليٍّ (صلوات الله عليه)، قال: "أمَّا نحن معاشرُ الأنصارِ من أصحاب رسول الله (صلَّى الله عليه وآله)، فإنَّا نَختبِرُ أولادَنا بِحُبِّهِ؛ فَمَنْ لم يُحِبُّهُ منهم عَرَفْنَا إنَّه ليس مِنَّا"[٢٢]، وعلى هذا وردت الكثير من الأحاديث الشريفة عن أهل بيت العِصمَةِ (عليهم السلام)، ومنها تُعرفُ طهارة مولد المرء، فكيف بِمَن يهيج الحزنُ في صدره حتَّى يظهر في دموعه، وربَّما جزعه، ليدلَّ قطعًا على طهارة مولده وسلامة نفسه، وهنا عليه أن يتوقف..

بكيتُ الساعة أبا عبد الله الحسين (عليه السلام)، فأنا طاهر المولد، ولا تزال نفسي قابلة للطهر والنقاء، فهل بعد الذكرى غير توبة نصوحًا تخرجني من ظلمات الدنيا إلى نور الهداية؟

لو أنَّنا نمحور خطابات الإحياء وسائر مظاهره حول هذا العنوان الجوهري، لتحقَّق بذلك وعي نوعي، ولأُصلِحَتْ الكثير من السلبيات دونَ تَعَبِ الإثَارَاتِ المُسْتَمِرَّةِ التي لم تُجْدِ نفعًا قط.

كما وأنَّها دمعةٌ تُورِثُ الحِكمةَ وتُخرِجُ المُؤمِن عن حدودِ النظرات الضيقة والتأزُّمات النفسية، بشرط الالتفات إلى جوهرها وحقيقة منطلقاتها.

---

[٢٢] - شرح الأخبار - القاضي النعمان المغربي - ج ١ - ص ١٦٦

عندما يستشعر المؤمن دمعته (الحارَّة)، فإنَّه يعذر حينها من يطلبها بشتَّى الطرق المشروعة، ويعذر من يجتهد في إيجاد طريق غيرها يسدُّ مسدَّها إن لم يَسْتَطِعْهَا لسَبَبٍ أو لآخر..

ما الذي نحتاجه إذًا؟

نحتاج إلى ما يُظهِرُ القيمةَ العالية، بل والعالية جدًّا، للدمعة التي تريقها النفسُ لمصائب أهل البيت (عليهم السلام).

الإيكاء والتباكي:

أضرِبُ مِثَالًا..

ترى السيدةُ زينب (عليها السلام) ما جرى في كربلاء بعين البصيرة واليقين، ولذلك قالت: "ما رأيتُ إلَّا جميلًا"[٢٣]، ولكنَّها هناك ليست وحدها، وليس من المُتَصوَّر أن تتعامل (عليها السلام) مع مستويات المحيطين بها بمستوى يقينها وبصيرتها، فهي كأي حكيم عالم، تُمَيِّز بين النظر الثبوتي والوظيفة الإثباتية، وتعي جيِّدًا معنى مُقْتَضَى الحال، وبناءً عليه، فإنَّنا عندما نقرأ حادثةَ حرق الخيام فقط دون أي تفاصيل أخرى، ننتقل بطبيعة الحال إلى مجموعة من اللوازم العادية، كتراكض الأطفال وجزع النساء وحال المرضى، ناهيك عن العطش الذي فتَّ القلوب والأكباد..

ثُمَّ نتساءل: كيف كان حالُ سيدتنا زينب (عليها السلام) في وسط هذه التداعيات المتسارعة؟ هذا والرجال يحيطون بنساء وأطفال الهواشم من كلِّ صوب، وهو مخالف تمامًا لما قام عليه بنيانهم الأدبي والثقافي. أليست سيدتنا الزهراء (عليها السلام) تقول: "ما مِن شيءٍ خيرٌ للمرأةِ مِنْ أنْ لا تَرَى رَجُلًا ولا يَرَاها"[٢٤]!

---

[٢٣] - مثير الأحزان – ابن نما الحلّي- ص ٧١

[٢٤] - دعائم الإسلام - القاضي النعمان المغربي - ج ٢ - ص ٢١٥

كيف نرى ما يجري عليهم الآن ؟! هذا والحديث عن أكثر الناس عزًّا وكرامةً، لا بمناصب دنيوية، ولا بجاه صنعه مالٌ أو ما شابه، بل بنور من الله تعالى يمشون به بين العباد..

هل يسأل عاقلٌ عن ورود أو عدم ورود تراكض الأطفال وجزع النساء عند حرق الخيام؟

لا يصحُّ السؤال، بل لا يصحُّ مجرَّد التفكير في مثل ذلك؛ فهي من الملازمات العادية التي تُسمى بلسان الحال. فلسان الحال ليس اختلاقًا أو وضعًا لحوادث، ولكنَّها قراءة رأسية للحدث تفضي إلى ذكر مفردات لم يذكرها الراوي، وهذا موجود بشكل طبيعي حتَّى في الكتاب العزيز، ولو أنَّ المولى عزَّ وجلَّ ذكر تفاصيل الأحداث الواردة في القرآن، لما استوعبتها مجلدات ومجلدات.

هكذا تُطلبُ الدمعة، وهو (التباكي)، وبه تُستَخْرَجُ من أعماق النفس، وهو (الإبكاء)، وكلاهما من الاجتهادات المطلوبة والمرضية عند الله تعالى؛ فهي ممَّا يُرجِع الإنسان إلى فطرته السليمة، كما مرَّ قبل قليل.

في الختام

هل كان الأمر ليستدعي كتابة مقال أو إلقاء محاضرة أو دخولًا في مناقشات وحوارات؟

لا أتصور ذلك لو أنَّنا نوسِّعُ صدورنا ونستوعِبُ الحالة الطبيعية لتعدُّد ما يقع تحت العناوين العامَّة.

يعتقد البعضُ أنَّ الحقَّ فردٌ واحِدٌ، وهذا خطأ عظيم، فالحقُّ مفهوم واحِدٌ يُظِلُّ أفرادًا بتلاوين مختلفة، إلَّا أنَّ جميعها يحكيه، كما هو الحال مع المرجعيات واختلاف توجهاتها، ولو أنَّنا نقف بشكل واضح على رجوعها كلِّها إلى عنوان واحد، لما فكَّر أحدٌ في الإساءة إلى أحدها مطلقًا؛ لأنَّ الإساءة حينها تلحق بالعنوان الكلّي، وهذا -للأسف- ما وقع فيه بعضُ المُؤمِنين، وها نحن ندفع أثمانًا بلا أدنى مبرر مقبول.

أسألُ اللهَ تعالى بحق القاسِم بن الحسن (عليه السلام)، أن يصلِّيَ على محمَّد وآل محمَّد، وأن يمنَّ علينا بصدور واسعة، وقلوب هادِئة، وبصائِر ناضجة، وأن يجلِّلنا بالحكمة والفهم، إنَّه سميع مجيب.

السيد محمَّد بن السيد علي العلوي
ليل الثامِن من المحرَّم ١٤٤٠ للهجرة
قرية عراد – البحرين المحروسة